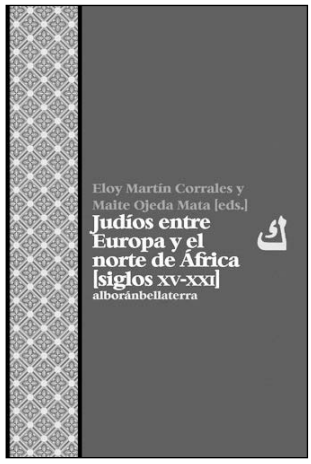

Eloy Martin Corrales y Maite Ojeda Mata (eds), Judios entre Europa y el Norte de Africa (siglos XV - XXI), alboranbellaterra.

هذا مؤلف آخر مما تنشره دار ألبران بلاترا من الأبحاث المثيرة عن تاريخ الأخذ والرد بين ضفتي الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط بإشراف الضالعين في إماطة الستار عن هذه المواضيع الشائكة المتشعبة من بين إسبان وفرنسيين ومغاربة. ولقد سبق لي أن عرفت بالعدد 28 من السلسلة عن ثقافات الساحل الأطلسي الصحراوي الذي أشرف علي نشره الأستاذان البرتو لوبيث بركادوس وخسوس مارتينث ميلان. ويطيب لي أن أقدم اليوم في مجلتنا هاته لهذا العدد عن الأقليات اليهودية بين أوربا وإفريقيا الشمالية فيما بين القرنين الخامس عشر والواحد والعشرين. ويحتوي على عشر مقالات، خمسة منها عن بعض جوانب تاريخ اليهود في المغرب والخمسة الباقية عن موقف الإسبان من هذه الملة في الحقبة المعنية. ويتوسط المجلد مجموعة من الصور معظمها عن اليهود المغاربة الذين لم يميز فيهم بين من هم مغاربة أصلا وبين "السفرديم" وهم يهود إسبانيون وبرتغاليون دخلوا المغرب مهاجرين بعد طردهم من بلدهم الأصلي، فعن هؤلاء المهاجرين وعن مصائرهم منذ ذلك القرار الصليبي الجائر إلى يومنا هذا تدور الأبحاث المدرجة في الكتاب الذي ينفتح على مقال السيدة إليزا كازيلّي عن معاناة هؤلاء المطرودين بقرار الملكين الكاثليكيين إسابلاّ وفرناندو المؤرخ بيوم 31 مارس 1492 والذي أمرهم بأن يعتنقوا المسيحية أو يهاجروا إلى حيث يشاؤون وإلا فالسيف مصلت على من وجد منهم بعد الأجل المحدود أو على كل مهاجر رجع إلى إسبانيا خفية. واعتمادا على وثائق محاكم التفتيش الكنائسية وقفت الباحثة على ما ترتب على ذلك من المآسي بأمثلة ملموسة تبدي تعلق " السفرديم " بوطنهم

الأصلي وتلهفهم على الرجوع إليه وكيف ظلوا مخلصين لأعرافهم وثقافتهم الإسبانية في بلدان المهجر من ضفاف البحر الأبيض المتوسط مثلهم في ذلك مثل أجدادهم منذ الجلاء الأول الذين كانوا صلة الوصل بين شرقيه والغرب. ولا أدل على ذلك مما تعرض له مقال السيد خاومي طوراس إلياس عن " اليهود والمورسكيين والعلوج في "جمهورية " سلا ، وقد أقيمت على مجموعات متباينة من المسلمين واليهود وممن اعتنق الإسلام من قرصان أوربا الشمالية الذين تعارفوا وتعايشوا على مصالح تجارية ملموسة وفي طليعتها فداء الأسرى بين الضفتين في جو من التجاذب والتنافر يغطي الأحقاد والحسائف ولا يحول دون توزيع الفوائد وتبادلها، ذلك بأن معظم اليهود المطرودين من شبه الجزيرة الإيبيرية استقروا في المغرب والجزائر حيث انتظمت حركات الجهاد البحري ضدا على الملاحة الأوربية التي ما لبثت أن تفوقت عليها قاطبة قبل نهاية القرن الثامن عشر، ثم أصبحت جاهزة للانقضاض على دار الإسلام شرقا وغربا في القرن التالي.

ومن مفارقات تلك الحقبة الفاصلة في التاريخ المطبوعة بالفكر المستنير وبالثورة الفرنسية والتوسع الإمبريالي أن برزت الأقليات اليهودية للعيان وانكب الباحثون من أبناء الملة ومن غيرهم على التنقيب عن تاريخ تلك الأقليات المضطهدة والمسكوت عنها إلى ذلك الحين بالرغم مما كان لها من أدوار الوساطة الحضارية والتجارية. فجرت نهضة يهودية في القرن التاسع عشر كان ليهود المغرب نصيب منها، وذلك ما تطرقت له السيدة كوليت زيتنكي باستعراض ما تم من الأبحاث والدراسات فيما بين 1860 و 1962 عن ماضي اليهود في إفريقيا الشمالية يوم صار أغنياء اليهود ومثقفوهم الأوربيون يهتمون بمصير أبناء ملتهم المطبوعين بتخلف الأغلبية المسلمة التي كانوا يعيشون وسطها ويوم انتبه دعاة الاستعمار إلى كون الأقلية اليهودية خير مدخل للتجسس على دار الإسلام وخير معين على التسرب إلى بواطنها. وذلك ما يتجلى من دراسة السيدة إيرين كونثالث كونثالث عن الرابطة الإسرائيلية العالمية وعن أعمالها في شمال المغرب حيث أنشأت أول مدرسة لها في تطوان وصارت تعد أجيال جديدة من أبناء وبنات اليهود للمجتمع العصري في لحظة التسابق الاستعماري بين فرنسا وإسبانيا على المغرب. ويعزز هذين المقالين مقال السيد إيلوي مارتين كورالس عن تشنج العلاقات بين المسلمين واليهود إبان

الحماية الإسبانية لشمال المغرب في فترة الجمهورية الثانية (1931 –1936) الناجمة حتما عن تقدم الأقلية اليهودية على درب المعاصرة ووقوفها إلى جانب المستعمر قصدا أو عن غير قصد وتخلف الأغلبية المسلمة واهتمامها بمعركة الانعتاق من الاحتلال الاستعماري قبل اهتمامها بمعركة إصلاح النفس. وكان من مفارقات التاريخ وأسرار تقلباته أن عادت إسبانيا تتذكر أن "السفرديم " هم من أبنائها وأنه لا مناص من الأخذ بيدهم والاستعانة بهم لدعم المصالح الاستعمارية في المغرب، مما لم يكن ليخفى على الأغلبية المسلمة.

هكذا صارت الحسابات القديمة تؤخذ بعين الاعتبار من جديد في إسبانيا وصار ينظر إلى اليهود بنظارات اختزلت دفعة واحدة ما كان يختلج في المجتمع الإسباني منذ قرار طرد اليهود ثم المسلمين من عنيف التناقضات بين من يرى سلامة البلاد في صفاء الدم (limpieza de sangre) في قولهم ومن يرى ذلك في الانفتاح ومخالطة الأجناس وفي ما وسم في القرن الثمن عشر بالتفرنج، (afrancesamiento) في لغتهم، وتندرج المقالات الخمسة الأخيرة إجمالا حول مظاهر معاداة إسبانيا لليهود انطلاقا من مقال السيد فرناندو برابو لوبث عن تأصّل تلك العداوة في العصور الأولى من المسيحية وفي النقد المسيحي التقليدي لما ورد في التلمود صحيحا أو منحولا من الأقوال الحاطة من قداسة المسيح ومن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية. وتواصل ذلك النقد في العصر الحديث من خلال ما كتب في أوربا تنديدا بأقوال التلمود الذي يعتبره اليهود ثاني كتبهم المقدسة بعد التوراة.

وكتب السيد كونثالو آلفريث عن مظاهر معاداة اليهود في كطلونيا مبرزا ما كان يشوب ذلك من الشوائب وما كان يكتنفه من التقلبات إذ اختلطت العصبية القومية الكطلونية تارة بالتعاطف مع السفرديم إلى حد اعتبارهم شعبا مهضوم الحقوق من قبل السلطة المركزية القشتلية وتارة أخرى بالمعاداة المسيحية الصارخة الموروثة إلى حد التعاطف مع موجهة المناهضة لليهود التي اكتسحت فرنسا أواخر القرن التاسع عشر جراء الكتابات العنصرية لإدوار درومون (Edouard Drumont) ولقضية الضابط ألفريد دريفوس وذلك درأ لما كان يومئذ يرمى به القوميون الكطلانيون بكونهم في الأصل مجرد يهود تمسحوا بدليل تفوقهم على باقي الإسبان في التجارات والصناعات. وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن الموقف من اليهود كان في قلب الكيان الإسباني يشكل محور الانتقال من التقاليد البائتة إلى

المعاصرة المتفتحة، وزاد في تعثر ذلك الانتقال في إسبانيا ظهور الحركة الماسونية في القرن الثامن عشر وتمسك العديد من مثقفي اليهود الأوربيين بمبادئها الداعية إلى التقدم والتعلم ونبذ الخرافات والأعراف البالية، مما جعل أنصار " إسبانيا السوداء " المتمسكين بالإرث والتقاليد يزدادون نفورا من اليهود ويتشددون في النيل منهم ولو بالقول. وأجلى ما تجلى ذلك في دكتاتورية فرانكو عندما قام هذا الجنرال يحارب "إسبانيا الحمراء " المبنية على الماسونيين والشيوعيين واليهود، وذلك ما فصل القول فيه السيد خبيردومينكث أرّباس بالوقوف على اصول الحركة الفرانكاوية والخرافة اليهودية الماسونية. وسندا لهذا المقال جاء مقال السيدة مايطي أوخيدا عن متابعات القضاء والشرطة في ذلك العهد لليهود السفرديم في برشلونة ومليلية وفي منطقة الحماية الإسبانية في المغرب بتهمة الانتماء للماسونية، علما بأن فرانكو لم يكن ليتغافل عن مكان اليهود في التوسع الاستعماري، ولذلك صار يفتح أبواب البلاد أمامهم ليستوطنوها من جديد ويشاركوا في إخراجها من التخلف، حتى إذا وافاه الأجل المحتوم أشرعت طرق عودة اليهود إلى إسبانيا ورفعت كل الحواجز السابقة الدينية منها والقانونية والمعنوية، وتوج ذلك بالحفل الرسمي الذي أقيم يوم 31 مارس 1992 برئاسة الملك خوان كارلس لإلغاء قرار الطرد المتخذ قبل ذلك بخمسمائة عام يوما بيوم. وتفاصيل كل ذلك واردة في مقال السيدة دانييل روزنبرك الذي يختتم به هذا المؤلف عن مصير الأقلية اليهودية الإسبانية في العصرين الحديث والمعاصر حيث ما فتئت تلك الأقليات تتقلب بين الهجرة والعودة وبين الجلاء والرجاء بين ضفاف البحر الأبيض المتوسط تأخذ وتعطي وتعاني ويعانى منها لا سيما بعد أن قامت دولة الصهاينة في فلسطين ومكنت من أدوات التنكيل بأهل البلد، وذلك من مفارقات التاريخ الذي لا زالت رحاه تدور خلافا لما ادعاه عبثا بعض الدعاة.

وليس لي من ملاحظة على هذه المجوعة من الأبحاث القيمة سوى كونها لا تميز بوضوح بين اليهود المغاربة الأصليين وبين " السفرديم " الذين استقروا مكرهين في المغرب بعد 1492. وعدم التمييز بين هاتين الطائفتين لا يجوز إلا لمن يعتبر اليهود شعبا سلاليا واحدا، وتلك خرافة لم يعد يقبلها البحث التاريخي منذ صدور كتاب شلومو ساند.

إبراهيم بوطالب